المجلة الجزائرية للأبحاث والدراسات ISSN 2602-5663
المجلد 02- العدد 07 - شهر جوان- السنة 2019

التقلبات المناخية والموجات الوبائية المشتركة بين المغرب والمجال المتوسطي خلال القرنين 16 و17م

محمد المنتفع
الأكاديمية الجهوية لمهن التربية والتكوين
جهة كلميم وادنون – المغرب
elmountafiamed@gmail.com

تاريخ الارسال: 2019-05-24 تاريخ القبول: 2019-06-08 تاريخ النشر: 2019-06-15

الملخص:

لعبت التقلبات المناخية دورا هاما في تطور مسار الأحداث التاريخية في المغرب والمجال المتوسطي خلال القرن 16 و17م. وهو دور غالبا ما لا يتم الانتباه إليه. ويتجلى على الخصوص في انهيار بعض حضاراته وفراغ المدن والأرياف من السكان نتيجة آثارها الكارثية بعد انحباس المطر الذي تولد عنه نقص الحبوب وارتفاع أسعارها وتدني الأجور، وبالتالي انتشار المجاعات والأوبئة الجارفة في مختلف مناطق المغرب والمتوسط، كما نتج عنها انتشار الفقر والتسول واللصوصية التي دفعت بالسكان إلى الهجرة نحو المناطق الآمنة. بل الأكثر من ذلك وقفت دورة المناخ المتطرف عائقا حال دون تسرب التأثرات الثقافية والاجتماعية بن هذا الطرف أو ذاك قبل أن تستأنف خلال السنوات المطيرة والخصبة.

فهرس الكلمات المفتاحية: التقلبات المناخية، الجفاف، المجاعات، الأوبئة، المغرب، المجال المتوسطي.

Abstract:

Climatic variations play a key role in the evolution of historical facts in Morocco and the Mediterranean during the sixteenth and sixteenth centuries. But this factor is often neglected when it comes to explaining the collapse of certain civilizations or the depopulation of certain towns and villages. Indeed, the obstruction of rain has the effect that cereals are so rare that their price is so expensive, while wages are so low, which results in the spread of famine and epidemics throughout Morocco and Mediterranean; without forgetting, of course, misery, begging and crimes. That's why homes are moving to more secure and secure places. In addition, the extreme climate cycle prevents cultural and social exchanges, before they recur again during the several years.

Keywords: climatic variations; Drought; starvation; The epidemics; the Morocco; Mediterranean space.

مقدمة

تعد التقلبات المناخية، من هطول الأمطار وطوارئ المواسم والجفاف المخيف والصقيع المريب والفيضانات، مدخلا أساسيا للاهتمام بتاريخ الإنسان، إذ تضيف دراسة تاريخ المناخ وما يتلوها من مجاعات وطواعين جارفة لونا جديدا وشيئا ملموسا لتاريخ اقتصادي واجتماعي كامل، وذلك نتيجة تأثيراتها المتقطعة وغير المتجانسة التي خلفتها السنوات الكارثية البعيدة على الدول واقتصاداتها، (Le Roy Laduri, 1959, p. 3) بفعل عوامل عدة أهمها: عدم انتظام التساقطات المطرية وتفاوت توزيعها السنوي الذي يأتي متباينا بين منطقة وأخرى. (Braudel, 1966, p. 218) وأمام قسوة هذه الظروف المناخية، وما تحدثه من آثار وخيمة على المجتمعات واقتصادات الدول، جعلت المؤرخين يفسرون سبب سقوط الإمبراطورية الرومانية بانحراف طرق الأعاصير فنجم عن ذلك جفاف قاس أصاب تدريجيا منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، وفسر بعضهم هجرة المغول في العصر الوسيط بتنقلهم بحثا عن الكلأ والعشب نتيجة ما أصاب منطقتهم آسيا الوسطى من جفاف وانقطاع. (يفوت، 1991، صفحة 47)

ولاحظ العديد من المؤرخين أن هذه التغيرات المناخية وما تلاها من مجاعات وأوبئة جارفة لم تكن مقتصرة على منطقة بعينها بل كانت شاملة لمختلف المناطق بما فيها مجالات البحر الأبيض المتوسط، وتركزت الظاهرة خصوصا خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادي والقرن السابع عشر (Le Roy Laduri, Histoire et Climat, 1959, p. 4)، مخلفتا آثارا شمولية على الأرياف والمدن. فما نصيب المغرب من آثار التغيرات المناخية والأوبئة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين؟ وهل يشترك مع بلدان المتوسط في مظاهرها وآثارها؟

1- مظاهر وآثار التقلبات المناخية بالمغرب والمجال المتوسطي:

تأكد أثر التقلبات المناخية على الإنسان من خلال ما عرفته سنوات القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي من تدفق الحبوب من بحر البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط، وهجرات السكان من إسبانيا ونقص في عدد المواشي بها سنة 1500 وخاصة خلال عام 1600 (Le Roy Laduri, 1959, p. 5)، التي كانت مرحلة ذات أهمية تاريخية كبيرة فيما يخص التغيرات المناخية، وسيكون من العبث محاولة تقديم تفسير لها دون تحليل الاقتصاد والمجتمع الأوربي في ذلك الوقت (Le Roy Laduri, p. 5). أما في المغرب فقد أحدثت الظروف المناخية القاسية آثارا كبيرة على أنشطة الإنسان على مدار السنة، إذ قللت من نشاطه، وجعلته عاجزا عن القيام بأي عمل خاصة مع هطول أمطار مصحوبة ببرودة ورياح شديدة (Massignon, 1906, p. 77)، وخلال سنوات انحباس المطر تقل احتياطاته من القوت، وبالتالي أزمة غذائية عمت البوادي والحواضر (Rosenberger, Bernard; Triki, Hamid, 1974, p. 25)،

وهو ما أدى في نهاية المطاف إلى انتشار المجاعات الشمولية أنحاء المجال المتوسطي (Le Roy Laduri, 1959, p. 5). والجذير بالذكر، أن المغرب كان يعيش دورة التقلبات المناخية قبل مرحلة القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي، وقد وقف "أبي زرع الفاسي" بنفسه على حراثة الزرع بمدينة فاس في 15 من شهر أبريل وحصد في أواخر مايو، وكان "**منشأه في الطيب والبركة عن خمسة وأربعين يوما، وذلك في ستة تسعين وستمائة وهو عام الريح الشرقية، دامت فيه الشرقية أربعة أشهر، ولم ينزل المطر تلك السنة ولم ترو الأرض إلا في الثاني عشر من شهر أبريل المذكور، فحرث الزرع مخاطرة**" (بن زرع الفاسي، 1972، صفحة 44). وبسبب تعطل المطر وحدوث الغلاء الكبير سنة 1520م تدهورت أحوال الناس مما دفع بعض المتصوفة إلى نصح أتباعهم بالعدول عن إنفاق المال في البناء والمسلمون في حاجة إليه للقوت (العربي الفاسي، الصفحات 194- 279- 280)، كما لجأ السكان في مدينة فاس بعد القحط الشديد الذي أصابهم إلى الأولياء للاستسقاء (بن القاضي، 1973، صفحة 102). واستمرت آثار قلة المطر والجفاف على السكان، فمنذ ذلك التاريخ إلى سنة 1736م قل المطر من جديد في فاس ولم ينزل قط إلا مرتين، فغلت أسعار القمح وكثر الكساد في السلع. (القادري، 1977، صفحة 400) وبعد سنة من انحباس المطر وغلاء الأسعار "**مرض الناس بسعال كثير، وأحصي من مات في هذه المسغبة في سنة خمسين من أولها إلى تمامها ممن دفن أهل المارستان، تسع وثمانون ألفا وأضعاف ذلك دون من دفنه غير أهل المارستان**". (القادري، صفحة 17)

كانت هذه الظروف البيئية القاسية، من المطر القليل والبرد القارس والرياح العنيفة وتوالي سنوات عدة من الجفاف وعدم كفاية الاحتياط من القوت، أثر كبير على الحياة العامة للإنسان، إذ دفعت المزارع إلى تخزين المؤن والحبوب ونفس الشيء بالنسبة لمنازل الحضريين الذين لجئوا، خلال الشتاء، إلى ادخار الغذاء من حبوب وخمور وخشب التدفئة. (Braudel, 1966, p. 235) وخلقت هذه الظروف هلعا كبيرا عند ساكنة المدن والأرياف المغربية (Rosenberger, Bernard; Triki, Hamid, 1974, p. 25)، التي اعتاد سكانها على زرع الحبوب في الخريف مع أول هطول الأمطار التي تلين التربة وتسمح بمرور المحراث وتنبت الحبوب وينمو الكلأ، أما إذا تأخر المطر، فإن القلق كان يساور أهل الريف والمدن، حيث ترتفع الأسعار، من جديد. (Rosenberger, Bernard; Triki, Hamid, p. 25) وقد وصف مؤرخ مجهول أزمة الغذاء بعد موت أحمد المنصور، قائلا: «**بيع القمح بثلاث أواقي للمد عام أربعة عشر ومات قوم لا يحصون جوعا**». (مؤرخ مجهول، 1994، صفحة 99) ووصف القادري هذه الأزمة بمدينة فاس قائلا: "**بلغ سوم القمح في شهر ذي الحجة منها ستة أواقي للمد، وسوم الشعير إلى أربع أواقي للمد. ولم**

يجد أحد بما يشتريه من غلبة الفساد وكثرة الكساد في السلع، لأن التي كانت تساوي عددا صارت تساوي نصفه أو أقل ولم يوجد من يشتريها أيضا لا بقليل ولا بكثير من (...) شدة الغلاء وقلة الأمطار، وقاسى الناس من ذلك الشدائد العظام من انقطاع ظهور اللحم وقلة الإدام. ولم يزل الأمر في شدة وازدياد وماتت بالضيعة رقاب كثيرة. وارتفعت الأسعار لأجل الفتن وقلة المطر، وبلغ القمح نحو ثمان موزونات للصاع النبوي، وفر الناس من المدينة لأجل ذلك كل الفرار" (القادري، 1977، صفحة 400).

واستمرت التقلبات المناخية وتأثيراتها بالمغرب، بحيث نزل في مدينة فاس في 28 من رمضان عام 1691 "**رعدة نزل فيها حجر مثل الرمان إذ هرس وجد في بطنه دم وأصابت بعض الزرع فأهلكته، ويقال أنها نزلت معها حيات**" (القادري، صفحة 54)، كما عرفت المدينة في عام 1695 هبوب "**رياح جنوبية عظيمة واسترسلت نحو ساعتين وأسقطت دورا وأقلعت أشجارا كثيرة**" (القادري، صفحة 65). وفي 25 ربيع الثاني، 24 نونبر من نفس السنة شهدت المدينة هبوب "**ريح عظيمة وطالت نحو الثلثين من الليل سقطت بها جدران كثيرة مات بها أزيد من مائة وثلاثين نفسا، وفي ثاني عشر جمادى الثانية نزل ثلج عظيم وألهى الناس عن معائشهم أياما. ثم ورد الخبر من توات أنه نزل بهم ظلمة عظيمة من أول النهار إلى الزوال وكان لا يعرف أحد منهم الآخر إلا بكلامه**". (القادري، الصفحات 72– 73) وزاد من تأثيرات التقلبات المناخية الجراد الذي تسبب في قلة الإنتاج، لكنه يغدو أقل تأثيرا على المحصول الزراعي بالمغرب، رغم أنه هدد منطقة الجنوب ودمر الغطاء النباتي في الواحات المروية، وذكر أنه في حالة استثنائية يصل إلى طنجة (Rosenberger, Bernard; Triki, Hamid, 1974, pp. 25- 26)، قادما من مراكش كما هو الشأن في عام 1570م (الوفراني، 1888، صفحة 50). وكانت مدينة فاس تعرف نمطا دوريا في السيول الجارفة، فقد عايش السكان آثار السيل العظيم الذي ضرب المدينة في سنة 1599م تسبب في تهدم الدور والأسواق والقناطر (مؤرخ مجهول، 1994، صفحة 99). وتضرر النشاط الزراعي بفاس عام 1695 بسبب "**سيل عظيم حملت به الأنهار وذهب بأربع دواوير، بما اشتملت عليه من آدمي ودواب وماشية**" (القادري، 1977، صفحة 159).

وشهدت أرياف ومدن الضفة الشمالية من البحر المتوسط تأثير التقلبات المناخية على الإنتاج الزراعي، وتسببت في ارتفاع الأسعار وانتشار المجاعات والأوبئة، وخير مثال على ذلك فرنسا التي شهدت ما بين 1620– 1700م انخفاض درجات الحرارة مما أثر على المحصول الزراعي. (Le Roy Laduri, 1959, p. 217)وبالإضافة، إلى عامل انخفاض درجات الحرارة، شكل فصل الشتاء البارد جدا عائقا حقيقيا لزراعة الحبوب، وهذه التغيرات المناخية تفسر

الأزمة الاقتصادية والديمغرافية للقرن السابع عشر وهي الحالة التي عاشتها بلدان الشمال الأوربي. (Le Roy Laduri, pp. 458- 459) بل الأكثر من ذلك، أن هذه التغيرات المناخية، وخاصة فترات الجفاف الطويلة، لعبت دورا في انهيار بعض الحضارات (اليونانية والأترسكية والرومانية والبيزنطية) أو أسهمت في ذلك، ويمكن أن نرجع أسباب إخلاء مدينتي مايسينا وتايرينز في جزيرة بيلويونيزيا اليونانية إلى ضعف المحصولات الزراعية نتيجة الجفاف، (عبد العزيز حسن، صفحة 56) وترجع أسباب الحريق الذي شب في مدينة مايسينا إلى المزارعين الذين عندما قرصهم الجوع لجئوا إلى العنف للوصول إلى مخازن الحبوب، ويحتمل أن الدافع وراء هذه الهجرة الجماعية من مدينة مايسينا مبعثه الجفاف المتواصل الذي حل بهذه المنطقة. (عبد العزيز حسن، صفحة 56) ولم يسلم المغرب من هذه الحرائق، إذ يذكر القادري اندلاع حريق بتامسنا أودى بحياة ألفين فيما ذكر (القادري، 1977، صفحة 157)، وتسبب في نقص الغذاء وانتشار المجاعات، كما هو الحال في إسبانيا التي عانت من نقص كبير في الحبوب بسبب النمو الديمغرافي الذي عرفته البلاد، ورحيل اليهود والمسلمين مما أصبح معه الحصول على الاكتفاء الذاتي من هذه المادة صعبا. (Marroun, 1993, p. 42) ومما لا شك فيه أن دورة الجفاف التي تصيب المدينة بين الفينة والأخرى كانت تؤدي إلى الكساد الثقافي الذي تميزت بها تلك الفترة. (عبد العزيز حسن، صفحة 56)

كان للتقلبات المناخية تأثير واضح على قيمة الأسعار وعدد سكان الأرياف والمدن، (Le Roy Laduri, 1959, p. 218) إذ على إثرها كانت تنتشر المجاعات الكبرى مع ما تتصف به من شمول مفاجئ يستوقف الانتباه بين حين وآخر، "**وكان من الممكن أن يتضاعف عدد السكان في أقل من 25 سنة لولا الارتفاع الرهيب في الوفيات**" (رولان ، 1987، صفحة 211)، نتيجة هذه الظروف البيئية السيئة من المطر القليل وتوالي سنوات الجفاف المخيفة والرياح العنيفة، وهي أحوال كانت تقرر مستوى عيش سكان الأرياف والمدن المغربية والمتوسطية.

2- الموجات الوبائية المشتركة بين المغرب والمجال المتوسطي:

يشترك المغرب والمجموعات السكانية للبحر الأبيض المتوسط في تسلط الأوبئة والطواعين الجارفة كالطاعون الأسود 1348م الذي أودى بحياة نصف القارة الأوربية، والموجات الوبائية التي انتشرت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، والتي اتسمت بالشمولية بمختلف أنحاء المتوسط، وكانت آثارها وخيمة على السكان والاقتصاد والعمران، وانعكست، بشكل سلبي، على كل ارتباط وتداخل ثقافي. وعلى إثرها عرفت عدة مناطق مغربية انخفاضا سكانيا، خلال النصف الأول من القرن السادس عسر، خصوصا في سهول المحيط الأطلسي كدكالة وعبدة والشاوية،

وهي مناطق انتشرت بها المجاعة التي امتدت ثلاث سنوات من عام 1521 إلى 1523م، وهناك حالات لبعض المناطق التي انخفض سكانها إلى الثلثين في أقل من نصف قرن.(Rosenberger, 1977, p. 138)

وتجدر الإشارة إلى أن هذه السنوات الثلاث قد سبقتها أزمات أخرى، بما في ذلك وباء عام 1493م الذي جلبه اليهود إلى فاس بعدما طردوا من غرناطة، وتعرضت أماكن أخرى للوباء في سنة 1502 و 1503 وخلال سنة 1505م، وقد تسببت هذه الأوبئة في عدة ضحايا، ومع ذلك فهي لم تكن مماثلة لأزمة 1521- 1523م، التي ظلت لفترة طويلة راسخة في الذاكرة حسب المصادر التي تتفق جميعها على عواقبها الوخيمة. وقد وصف "رودريكيس" (RODRIGUES) هول المجاعة الشمولية التي كانت أشد وطأة على المغرب وشبه الجزيرة الإيبيرية وباقي دول المجال المتوسطي خلال عام 1521م، بقوله: "**قد ماتت الآلاف منهم، ولاسيما في مملكتي فاس ومراكش المجاورين لنا بسبب انعدام وسائل وإمكانات جلب الأقوات من الخارج**". (رودريكيس، 2007، صفحة 297) ووضع مقارنة بين المدن والقرى المغربية من حيث وقع هذه المجاعة، معتبرا أن ما حدث في أصيلا وبجوارها أقل وطأة مما حصل في دكالة، دفعت بالمغاربة إلى بيع أبنائهم وأهلهم مقابل الطعام، وقد اشترى بنفسه مغاربة مقابل المال، يقول "**وقد انتقلت أنا ورفاقي بين الدواوير واشتريت من شخص يسكن خيمة ابنته وحفيدته دفعت في الأولى اثنين وثلاثين طوشطار، كما اشتريت صبيا لطيفا بسبعة طوشطار**". (رودريكيس، صفحة 299)

ويضاف إلى هذه المجاعات الرهيبة، الناجمة عن الجفاف، انتشار الأمراض منذ مطلع القرن السادس عشر، وهي على الأرجح، ناتجة عن الطاعون الذي انتشر في أصيلا عام 1521م. (Rosenberger, 1977, p. 139) وكانت هذه الأمراض تنتشر، بشكل دوري، كل عشر سنوات أو خمسة عشر سنة كالطاعون الذي أصاب الأقاليم البربرية (Massignon, 1906, p. 79)، وكانت، في أحايين، كثيرة تموت العائلة الواحدة بأكملها أو يأخذ الطاعون بعض أفرادها، ويترك الآخرين لطاعون آخر قادم. كما كان أثرها واضحا على العلوم، إذ صرف الفقهاء نظرهم عن العلم إلى التكسب المادي. (العربي الفاسي، صفحة 204)

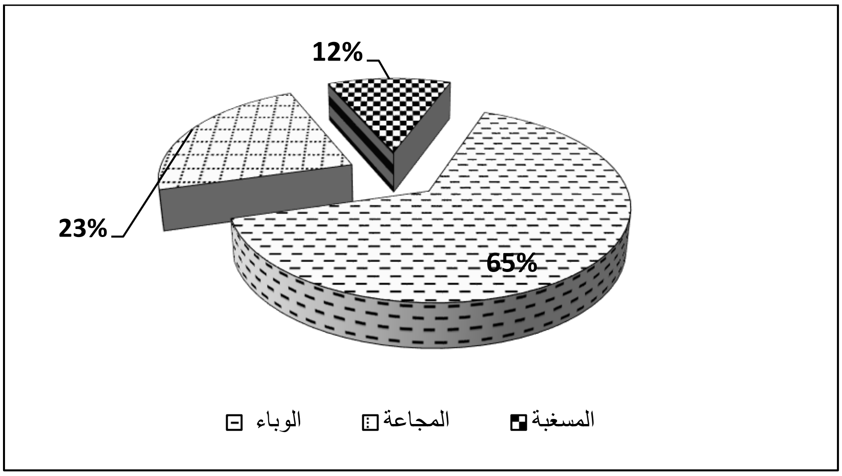
كان المشهد المأساوي الذي أصاب الأسر والأفراد بالمغرب نتيجة الأوبئة والطواعين الجارفة التي ضربت الأرياف والمدن، قد شملت البلاد التونسية مع سنوات 1450 و1468 و1484م، والجزائر خلال سنوات 1542 و1556 و1572م. (Massignon, 1906, p. 80) لكن يبدو أن المغرب انفرد، دون باقي بلدان شمال إفريقيا، بسيطرة الأوبئة والأزمات الغذائية: (9 حالات وباء: 1509 و1510 و1511 و1512 و1517م، و4 حالات مجاعة و3 مساغب)، في حين لم يسجل في المغرب الأدنى إلا 5 حالات وباء و9 أعوام وباء ومجاعتين، وفترة غلاء قد تكون

شكلت مسغبة. أما المغرب الأوسط فقد بسطت الأوبئة نفسها عليه: 7 حالات وباء وحالتا مجاعة (بوجرة، 2011، الصفحات 168- 169). ويمكن القول أن بلدان المغرب العربي قد توحدت في سيطرة الأوبئة والأزمات الغذائية، وإن اختلفت في سنوات حصولها ومدى خطورتها. والملاحظ أن هناك علاقة تلازمية واضحة بين المجاعات والأوبئة بهذه البلدان وخاصة المغرب، وتظهر هذه العلاقة في ملازمة الغلاء تطور الوباء، وكانت مسغبة 1516- 1518م قد سبقت وباء عام 1519م، وأفرز تشابكهما مجاعة عام 1520 و1521م. (بوجرة، صفحة 171) (بوشرب، 1984، صفحة 286)

جدول رقم 1: نوعية الكوارث بالمغرب خلال القرن 16م

السنة	نوع الكارثة	المدينة
- 1505- 1506	وباء	فاس
- 1509- 1510	وباء	فاس
- 1511- 1512	وباء ومجاعة	سوس
- 1516- 1518	وباء ومسغبة	X
- 1519	وباء	فاس
- 1520	مجاعة	X
- 1521-1522	وباء ومجاعة	X
- 1533	وباء	فاس
- 1536	وباء	فاس
- 1541	مسغبة	جنوب البلاد
- 1557- 1558		

مبيان رقم 1: نوعية الكوارث بالمغرب خلال القرن 16م بـ%



(Rosenberger, Bernard; Triki, Hamid, pp. 40- 103) (بوجرة، الصفحات 169- 170)

حملت المجاعات التي شهدها المغرب ودول المجال المتوسطي، ما بين مرحلتي القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي، في طياتها الأوبئة على أنواعها، وجرت ورائها رافدة الطاعون الذي كان يودي بحياة العشرات والمئات، فيذهب بربع سكان المدينة أو ثلثهم أحيانا، (رولان ، 1987، الصفحات 126- 127) وخير مثال ذلك الوباء الذي ضرب المغرب وشبه الجزيرة الإيبيرية والبلدان المغاربية الأخرى ما بين 1521- 1523م، والناتج عن المجاعة الكبرى، وقد أسفر عن خسائر كبيرة في الأرواح (Rosenberger, Bernard; Triki, Hamid, 1974, p. 289). وكانت المجاعة الناتجة عن الجفاف والقحط المخيف الذي وقع في عام 1525م بمختلف نواحي الأندلس مهلكة للسكان (رولان ، 1987، صفحة 126). وتزامن وباء 1557- 1558م، في وقت واحد، مع الجزائر (Rosenberger, Bernard; Triki, Hamid, 1974, p. 289). وأتى بعد عام 1578م وباء أصاب المغرب، سمي بعام "كحيكحة"، وفيه «**كان الناس يسعلون ثم يموتون بعد ثلاثة أيام أو أربعة ووقع في الناس فناء عظيم**» (مؤرخ مجهول، 1994، صفحة 99).

وحصدت المجاعة التي نزلت بإيطاليا عام 1583م أرواحا كثيرة، حيث فقدت مدينة راغوس في سنة واحدة 20000 نسمة، وفقدت البندقية ما بين 1575 – 1577م، أكثر من خمسين ألفا. ولم يتبق من سكان مارسيليا سوى خمسة الآلاف نسمة عام 1581م. (رولان ، 1987، الصفحات 126- 127) وأدى الوباء الممتد من عام 1596 - 1610م إلى خسائر كبيرة نتجت عن 1000 حالة وفاة في فاس كل يوم (مؤرخ مجهول، 1994، صفحة 99)، ووفاة 2000 شخص كل يوم في مراكش، وقد حدد "روزنبارج" نسبة الوفيات بين 10 و30% من سكان الحضر. (Rosenberger, Bernard; Triki, Hamid, p. 289) وهكذا، فقد كانت الأوبئة والطواعين، في المغرب وسائر أرجاء المجال المتوسطي، مقترنة إلى حد كبير بالمجاعة التي قد تكون دفعت بالجرذان الريفية إلى الهجرة باتجاه مناطق الحبوب، ومرتبطة أيضا ببؤر الطواعين التي تشكلت في رحم الأوبئة السابقة. (بوجرة، 2011، صفحة 173)

جدول رقم 2: المجاعات والأوبئة بالمغرب وارتباطاتها الخارجية خلال القرن 16م

السنوات	نوعية الكارثة والمناطق المتضررة	ارتباطاتها الخارجية	الآثار
	F: مجاعة E: وباء		
1493	فاس (E)	إفريقيا (E) في1493- 1494	عدة ضحايا
1494	كورارة (E+ F)	تلمسان (E) نهاية 1494	
1503	المغرب	شبه الجزيرة الإيبيرية (E) 1503-	
		1505	
1509	فاس (E)		
-1511	سوس (E+ F)		
12		إسبانيا (E)	
1518	فاس (E)		مجاعة شاملة بالمتوسط
1519	جميع مناطق المغرب (F)	باقي بلدان إفريقيا والمتوسط (F)	(روردیکیس، ص. 297)
1521	جميع مناطق المغرب (F) – فاس	شبه الجزيرة الإيبيرية (E+ F) 1522	
-1522	(E) سوس (E)	وفرنسا (E) 1523	
23	جميع مناطق المغرب		وفيات عالية جدا
	فاس (E)		
1533			
1536	النصف الجنوبي للمغرب (غلاء)		تسبب الجفاف في ارتفاع
	فاس (غلاء)	الجزائر (E) منذ 1553	الأسعار
1541			
-1552	شمال المغرب: الريف، تطوان (E)		وفيات عالية جدا
53	تأثر فاس		
	كل البلاد (E)	الجزائر (E) حتى 1592 وتونس 1593	تسببت سنوات السعال
1557	كل مناطق المغرب (E+ F)	وإسبانيا (E) 1596- 1602، ومالطا	الحاد في عدة ضحايا، ومن
	فاس وتطوان (E)	وسردينيا وكورسيكا وقبرص (E)	المحتمل أن يكون أصل الوباء
1558		1565، الجزائر (E +F) حتى	قادما من إسبانيا.
-1579		1612. وتونس (E +F)، وفرنسا	
80		(E) 1563، وضرب وباء في غرب	
		فرنسا (E) 1582 و1597.	
1597			

المصدر: (Massignon, 1906, pp. 79- (Rosenberger, Bernard; Triki, Hamid, 1974, pp. 88- 89- 289) .(Delille, 1974, pp. 419- 421- 422) (Barry, 2000, p. 305) 80)

(بوجرة، 2011، الصفحات 169- 170) (مؤرخ مجهول، 1994، صفحة 99)

كانت الأمراض المنتشرة، في الأرياف والقرى المغربية، أشد فتكا وأكثر تدميرا مثل الطاعون الأسود أو مثل طاعون 1596م في إسبانيا (Rosenberger, Bernard; Triki, Hamid, 1974, p. 99)، التي انتشرت بها حمى أصابت أجزاء واسعة من مناطقها ما بين عامي 1596 إلى 1602م (Moreda & Collantes, 2011, p. 3)، حيث شهدت المناطق الداخلية، خلال هذه المدة، أزمة وفيات خطيرة، ورافق هذا البلاء غلاء الأسعار وتدني قدرة الساكنة الشرائية مما نتج عنه انتشار الفقر والبؤس (Moreda & Collantes, p. 4). ولم تقتصر هذه الكارثة على المناطق الإسبانية، بل امتدت إلى مناطق واسعة من أوروبا (Moreda & Collantes, p. 6). وأظهرت الأضرار التي خلفتها بين دول المجال المتوسطي تماثلا كبيرا بين دوله، فيما أحدثته من نزيف ديمغرافي، وخير مثال على ذلك المناطق الفرنسية التي أصابها الطاعون مع منتصف القرن السادس عشر، ولم ينته حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي، مخلفا وراءه عدة ضحايا، (Barry, 2000, p. 305) وتعتبر مدينة بوردو من المدن الفرنسية التي عانت مرارا من اجتياح هذا المرض الساحق والمخيف الذي أدى إلى حالة من الذعر في أوساط السكان، وتسبب في تعطيل كافة العلاقات والتبادلات (Barry, p. 305). وسقطت ساكنة صقلية مع الطاعون الذي ابتدأ من سنة 1624م إلى 1625م. كما تراجع معدل ساكنة مقاطعة "كامبانيا" بسبب طاعون سنة 1656م. (Delille, p. 422) ولم تستثن المناطق الإيطالية الأخرى من هذا الطاعون الشامل. (Delille, p. 422)

وكانت بعض سنوات انتشار الجفاف والمجاعة شمولية ببلدان شمال إفريقيا خلال القرن السابع عشر، حيث انتشرت في الجزائر من سنة 1603 إلى 1612م، وفي تونس من 1604– 1606م. (Rosenberger, 1977, pp. 141- 142)وضرب وباء 1603 المغرب، وكان السلطان أحمد المنصور أحد ضحاياه، وقد بالغ "ويكلنز" (WILKINS) في حديثه عن آثار هذا الوباء، مقدما رقما خياليا حول عدد الوفيات، وحسب ما ذكره وصل عدد الضحايا في مراكش 700000 من المغاربة، و700 من اليهود، وكان يموت في يوم واحد 4700 شخص، أما فاس فكان عدد ضحايا الوباء حوالي 500000، وتلى هذا الوباء مجاعة رهيبة (De Castries, 1925, p. 249). وانتشرت خلال هذه السنة الحمى ومرض الملاريا في غرب فرنسا (Barry, 2000, pp. 305- 307). وعاد الطاعون مرة أخرى إلى الواجهة بالمغرب خلال عام 1624م بسبب قلة المحاصيل والمجاعة التي استمرت حتى عام 1631م، وكان معدل الوفيات في منطقة مراكش مرتفعا عام 1626م بسبب الجوع والمرض (Rosenberger, 1977, p. 142)، ونتيجة لارتفاع الأسعار في نهاية 1626، كما تعرضت البلاد لاضطرابات الأحوال الجوية السيئة عام 1629 ترتب عنها مجاعة مخيفة (De castries, 1911, p. 119).

كان لأزمة نقص الحبوب والدقيق والخبز في عدد من مدن المغرب والمتوسط كجنوة والبندقية أثر كبير على السكان، حيث تعرضت إلى مجاعة كبرى انتشر على إثرها أعداد كبيرة من المتسولين وتزايدت الهجرة نحوها، وفتحت المجاعات المتكررة الطريق للمرض (Rosenberger, 1977, pp. 42- 43)، فقد أودت بحياة مليوني ضحية في فرنسا خلال السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر، وبالضبط في عام 1694م (بوجرة، 2011، الصفحات 72- 73)، وكان عدد وفيات السكان الحضريين لفرنسا قد بلغ حوالي 285000 حالة وفاة سنويا من 1670م إلى 1739م (Chevet, 1993, p. 128)، وهذا التراجع مرتبط بدورة الأوبئة التي كانت آثارها سلبية على المجتمع الفرنسي، إضافة إلى الأزمات الداخلية الوطنية. (Chevet, p. 131)شأنها في ذلك شأن باقي مجالات البحر المتوسط.

جدول رقم 3: المجاعات والأوبئة بالمغرب وارتباطاتها الخارجية خلال القرن 17م

السنوات	نوعية الكارثة والمناطق المتضررة	ارتباطاتها الخارجية	الآثار
	F: مجاعة E: وباء		
1602-	سوس(E)، مراكش ثم بعد ذلك كل	طاعون لندن 1602- 1603	العديد من الوفيات
03	البلاد (E)		عدة وفيات
	سوس (E) فاس (E)	فرنسا (بوردو) (E) 1604	بعض الوفيات
1604	مراكش (E) وكل البلاد (F)		وفيات في نهاية
1605-	جنوب المغرب (E) وكل البلاد (F)		1603
06	جنوب المغرب (E) وكل البلاد (F)		عدة وفيات
1607	جنوب المغرب (E)		
1608	فاس (F)	الجزائر وتونس (E) من 1620	
1609	فاس (F)	إلى 1624، إيطاليا (مقاطعة	عدة وفيات
1613	فاس (E) الغرب، مازكان (E)	سالرين وبينفينت) (E) 1620	عدة وفيات
1614	فاس (E) و(غلاء) في كل البلاد	الجزائر (F) من 1620 إلى	
1624	فاس، صفرو، مكناس، مراكش (E	1649	
1625	(F+	صقلية 1624- 1625،	العديد من الضحايا
1626	فاس ومراكش (F+ E)	وروتردام (E) 1624- 1625،	
	وادي درعة (E)	وأمستردام وليدن (E) 1625-	أعداد كبيرة من
1627	منطقة سلا (غلاء) وكل البلاد	1636، ومدينة أجن الفرنسية	الضحايا
1631-	فاس (E)	(E) 1628، بوردو(E)	المناطق المأهولة
32	سلا (E)	1629- 1632	بالسكان
1635	كل البلاد (غلاء)	الجزائر (F) من 1634-	عدة وفيات
1636	كل البلاد (F)	1635	

1647	كل البلاد (غلاء)	امتد الوباء إلى هولندا في أوتريخت	
1651	كل البلاد (F) و(غلاء) في فاس	عام 1645، ومقاطعة كمبانيا	عدة وفيات
1652	فاس (E+ F)	الايطالية 1656، ولندن (E)	عدة وفيات
1660	شمال البلاد (E)	1661 إلى 1664، وقد امتد	
1661	شمال البلاد سوف تمتد	الوباء إلى هولندا في اوتريخت عام	
1662	فاس – درعة، وكل البلاد (E)	1665، وتونس (E) 1676	
1678		والجزائر (E) 1677	
1679			
1680			

(Rosenberger, Bernard; Triki, Hamid, 1974, pp. 88- 89- 289) (Massignon, 1906, pp. 79- 80) (Moreda & Collantes, 2011, p. 305) (Cerighton, 1894, pp. 4-5 – 13- 17- 36)

كان ارتباط المغرب وثيقا بمجالات المتوسط على مستوى نوعية الكوارث خاصة المجاعات والأوبئة، التي امتدت خارج حدود هذه المجالات لتشمل إنجلترا وهولندا. وكانت هذه الكوارث غالبا ما تفضي إلى عواقب وخيمة على السكان وتعطل العلاقات الثقافية والاقتصادية، لذلك أنشأت كثير من المدن والدول المتوسطية أجهزة إدارية احترازية أمام الانتشار الكبير للأوبئة الشاملة، وهو في حد ذاته إجراء ضد انتشار العلوم والأفكار والأغذية ومظاهر الثقافة الأخرى. لكن رغم وقوف هذه الأوبئة والأمراض أمام مختلف الروابط والعلاقات بين مجالات البحر المتوسط فقد كانت عمليات الاتصال فيما بينها تستأنف خلال فترات النمو والانتعاش.

خاتمة:

نستشف مما سبق ذكره، أن تاريخ المناخ وتأثيره في سبل عيش الإنسان ظاهرة أكثر ارتباطا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، بحيث كانت دورة المناخ هي التي تقرر إلى حد كبير مستوى معيشة الجماهير والاقتصاد ككل (Le Roy Laduri, 1960, p. 434)، ولذلك فإن دراستها خلال هذه المرحلة لا يتعلق بالتاريخ الطبيعي فحسب، بل يهم على الخصوص تاريخ الإنسان. (Le Roy Laduri, p. 434) وقد عبر "لادوري" (LADURIE) عن هذا الارتباط الوثيق بين المناخ والإنسان قائلا: "**لن يقع الاهتمام بدراسة المضاعفات البشرية إلا في مرحلة ثانية حيث يتم الانتقال الشاق والعسير مما هو طبيعي إلى ما هو إنساني**" (يفوت، 1991، صفحة 4). وهكذا، فالتقلبات المناخية لعبت دورا هاما في أحداث التاريخ وهو دور غالبا ما لا يتم الانتباه إليه. (يفوت،

صفحة 48) ويتجلى على الخصوص في انهيار بعض الحضارات وفراغ الأرياف المدن، نتيجة آثارها الكارثية، وقد تبين ذلك، من خلال ما عرفته سنوات القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين من نقص الحبوب وانتشار المجاعات الشمولية أنحاء المجال، مما تسبب في تزايد عدد الهجرات من منطقة إلى أخرى (Le Roy Laduri, p. 5). وبسبب تفشي الأمراض والمجاعات الناتجة عن الظروف المناخية المتطرفة ارتفعت الأسعار وتدنت الأجور، ولم تعد الفلاحة والحرفة تدر دخلا كافيا. ووقفت عائقا حال دون تسرب التأثيرات الثقافية من العادات والتقاليد بين هذا الطرف أو ذاك. بل تسببت في انكماش سكاني كبير. ونتج عن ذلك، أزمات اجتماعية عدة مشتركة بين بلدان المجال المتوسطي، مثل تزايد الفقراء والمتسولين بالمدن، وانتشار اللصوصية والنهب والقتل (بوشرب، 1984)، جعلت سكانه يضطرون إلى النزوح نحو المناطق الآمنة.

قائمة المصادر والمراجع

بن القاضي، أحمد. (1973). جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس (الجزء الأول). الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.

بوشرب، أحمد. (1984). دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481- أكتوبر 1541)، الطبعة الأولى، دار الثقافة.

عبد العزيز حسن، أحمد. (بلا تاريخ). جغرافية أوربا – دراسة موضوعية. الرياض: كلية الآداب.

القادري، م .(1977) .نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر، الجزء الثالث، تحقيق .أحمدتوفيق، محمد حجي ,الرباط : دار المغرب.

القادري، م .(1977) .نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر، الجزء الرابع، تحقيق أحمد توفيق، محمد حجي، الرباط: دار المغرب.

الوفراني، م .(1888) .نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي .أنجى.

رودريكيس، برناردو. (2007). حوليات أصيلا (1508- 1535) مملكة فاس من خلال شهادة برتغالي. (ترجمة بوشرب أحمد) الدار البيضاء: دار الثقافة.

بن زرع الفاسي، ع .(1972) .عبد الله بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس .الرباط : منشورات دار المنصور للطباعة والوراقة.

بوجرة، حسين. (2011). الطاعون وبدع الطاعون الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير (1350-1800) (الطبعة الأولى). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

يفوت، سالم. (1991). الزمان التاريخي من التاريخ الكلي إلى التواريخ الفعلية (الطبعة الأولى). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

العربي الفاسي، محمد. (بلا تاريخ). مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن (ونبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب). منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد.

مؤرخ مجهول. (1994). تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية (الطبعة الأولى)، تحقيق محمد بنحادة، مراكش: نشر عيون المقالات، دار تنمل للطباعة والنشر.

رولان، موسينيه. (1987). تاريخ الحضارات العام، القرنان السادس عشر والسابع عشر (الطبعة الثانية، المجلد 4). (أسعد داغر يوسف، و فريد م. داغر، المترجمون) باريس: منشورات عويدات.

Barry, s. (2000). bordeaux face à la peste aux XVIe et XVIIe siècles. Histoire des sciences médicales, tome XXXIV(3), pp. 305- 313.

Braudel, f. (1966). la méditerranée et le monde méditerranéen a l'époque de Philippe II (éd. seconde édition, Vol. 1). (s. édition, Éd.) Paris: Librairie Armand Colin.

Cerighton, c. (1894). A History of Epidemics in Britain (Vol. II). Cambridge.

De Castries, H. (1925). Relation de George Wilkins 1604. S.I.H.M, Première série- Dynastie saadienne, Archives et bibliothèques d'Angleterre, II. paris.

Delille, G. (1974). Un problème de démographie historique : homme et femmes face à la mort. Mélanges de l'école Française de Rome .moyen-âge, temps modernes, 86(2), pp. 419- 443.

Le Roy Laduri, E. (1960) .Climat et Récoltes aux XVII et XVIII siècles .Annales ,économies, Sociétés, Civilisations15e année, N. 3, 1960. pp. 434- 465.

Henry De castries .(1911) .S.I.H.M, première série. dynastie sadienne, archives et bibliothèques de France. tome III.

Jean- Michel Chevet .(1993) .Les crises démographiques en France à la fin du XVIIe et au XVIIIe siècle : un essai de mesure .Histoire & Mesure.(2 -1)8 ،

Le Roy Laduri, E. (1959). Histoire et Climat. Annales, Économies, Sociétés, Civilisations(14e année, N. 1, 1959, pp. 3-34.

Marroun, A. (1993). L'affrontement entre européens et musulmans au sud de la Méditerranée occidentale aux XVe et XVIe siècles (L'échec de là l'action Ibérique au Maghreb). Thèse du Doctorat, Université Jean Moulin, Faculté des Lettres et Civilisation , I. Lyon III.

Massignon, L. (1906). Le Maroc dans les premières années du XVI Siècle tableau géographique d'après Léon d'africain. Paris: librairie antiquaire.

Moreda, V., & Collantes, f. (2011, Septiembre 8, 9 y 10). Crisis y problemas demográficos en España desde el Antiguo Régimen hasta el presente. Las crisis económicas en España. Sevilla: Universidad Pablo de Olavide Carmona.

Rosenberger, b. (1977, mai 13,14 et 15). Population et crise au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles. Famines Et Épidémies. cahiers de la méditerranée(2), pp. 137- 149.

Rosenberger, bernard; Triki, hamid. (1974). Famines et épidémies aux Maroc XVIe et XVIIe siècles. Hespéris Tamuda, 15 fasc unique, pp. 5- 103.